

جماليات الحوار في السينما والتلفزيون

منذ البدايات الأولى للسينما احتلت قضية الصوت اهتماما خاصا لمحاولة الوصول بفن الفيلم إلى الواقعية ، حيث لا يمكن في الواقع أن نفصل الصورة والرؤية عن الصوت ، فالحياة الحقيقية تمتلئ بالأصوات والسمع يعتبر بعد البصر أغنى حواس الإنسان وأكثرها تعقيدا بل إنه يعتبر أساس أحد أعظم الفنون وهي الموسيقى . كما أن الصوت في الحديث يعتبر هو الواسطة لنقل الأفكار والتواصل بين البشر. ومع دخول الصوت إلى السينما لم تعد السينما مقتصرة على جعل الناس يرون بل وجعلتهم يسمعون كذلك . فالحوار في الفيلم له ما يميزه ويجعله مختلفا عن أنواع الحوار الأخرى في الرواية الطويلة والقصة القصيرة والمسرحية والتمثيلية الإذاعية ، فهو عامل مساعد أو مكمل إنه يستعمل فقط لتوضيح اللقطة أو المشهد .. والحوار هنا أداة من هذه الأدوات وعامل مساعد لتوضيح أو تفسير ما صعب إيضاحه .

وفي الكتابة للسينما والتلفزيون يجب أن نراعي أن الصورة أكثر أهمية من الكلمة وأن تكون الأسبقية دائما للصورة ومن أهم أغراض الحوار السينمائي هو توصيل الحقائق التي لا يمكن تصويرها بالحدث . الحوار يجب أن يبقى متحركا فإن توقف أو انحرف عن مساره ولو بشكل طفيف فسوف يؤثر ذلك على تدفق التتابع الفيلمي ، والذي يجب أن يتدفق باستمرار من سطر إلى سطر ومن حديث إلى حديث . وفي الفيلم السينمائي لحسن الحظ يساعد التتابع الحركة البصرية وحركة الشخصية والمونتاج السينمائي .

وفي الكتابة للسينما والتلفزيون يجب أن نراعي أن الصورة أكثر أهمية من الكلمة وأن تكون الأسبقية دائما للصورة ، فمن أهم أغراض الحوار في السينما توصيل حقائق الحدث التي لا يمكن تصويرها . والحوار في السينما يستخدم لإرساء حقائق عن الماضي ويستفاد منه في وصف المكان ويخبرنا بتحركات الشخصيات الغائبة عن المشهد . وفي نفس الوقت يعرض موضوع القصة ويرسم شخصياتها ويكشف عن أبعادها المختلفة .

ويجب أن يشتمل الحوار على عنصر الحيوية والمتعة كنفس الأشخاص سواء بسواء ويجب كذلك ألا يضعف فيصبح نوعا من الشروح الفلسفية . وعلى كاتب الحوار أن يراعي وجوب اختلاف العبارات التي تستخدمها كل شخصية عن عبارات غيرها من الشخصيات بحيث تستخدم الكلمات التي تناسب مستواها التعليمي وأن يتماثل الحوار مع المهنة الأساسية لهذه الشخصية . فلغة ومفردات الميكانيكي وأسلوب حديثه بالطبع تختلف عن الطبيب أو غيره من أصحاب المهن الأخرى وحتى تشبيهاته تكون نابعة من مهنته ولا داعي لاستخدام تعبيرات غريبة وتكنيكية في الحوار ويكتفي بواحدة أو اثنتين في بداية الحوار لتوضيح المهنة أو بشذرات قليلة أثناء الحوار .

والحوار يتأثر كذلك بالحالة العاطفية للشخصية فعندما تكون راضية تتكلم بشكل عادي وهادئ ، أما في حالة الغضب فيصبح الكلام سريعا والجمل حادة ومتوترة .. وهكذا .

كما يجب أن يراعي في الحوار أن تتعكس شخصية الفرد الداخلية على إيقاع كلامه ، فنرى العنيد يعرض على كلماته في تصميم جازم ، بينما يتلعثم الإنسان الرقيق . ويستخدم المتحدث جملًا طويلة معقدة وهكذا .

وأهم ما في الحوار أنه يجب أن يعبر عن الشخصية لا عن أفكار الكاتب وذاتيته وأن يتسم بالموضوعية ويتفق مع الشخصية الناطقة به ، ويجب أن يطابق الحوار الحياة خاصة في السينما لما في طبيعتها من تجسيد كل شيء ولكن هذه المطابقة لا تعني نقل الواقع بحذافيره ولكن من خلال مرآة الفن .

إن استخدام الحوار المشحون بالفكاهة بطريقة مبالغ فيها يخنق الشخصية وتعتبر تسلية المتفرج عن طريق الفكاهات أمرا تافها وتفقد واقعية الشخصية ، ولكن الأمر يختلف كلياً إذا ما أقمنا قفزة من حين لآخر في الحوار دون المجازفة بطبيعة الشخصية ككيان حي يتنفس . ونجد أن أكثر الأخطاء شيوعاً في الكتابة السينمائية هي الافتقار إلى رسم الشخصيات . ويحدث هذا بشكل خاص في السيناريو المغرق بالفكاهة . وكل من يكتب السيناريو -و كل من حاول كتابة السيناريو لن يقدر على إنكار أن الكوميديا هي النوع الأكثر صعوبة وأنها تتطلب الجهد الأعظم وأيضا التواضع الأعظم . وأي استخدام لصيغ لفظية مضحكة من أجل التأثير الكوميدي يجب أن يكون بشكل معقول ودون إكثار ، وأن نعلم أنها ما هي إلا دعائم ولمحات قصيرة ، ولذا يجب أن لا نفرط في استخدامها وأن نستخدمها باعتدال .

وعلى كاتب السيناريو أن يعمل وفق مبدأ بسيط وهو أن يترك الشخصيات تعبر عن ذاتها بلغتها ولا نجبرها على قول ما نريد لا بل ما تريد هي ، فنتركها تتصرف وفقا لطبيعتها هي وكلامها هي ولهجتها هي وأسلوبها هي في الأداء . وكاتب السيناريو أو الحوار في الفيلم لا يفكر في بناء الحوار فحسب بل إنه يفكر في ملائمة هذا الحوار للحركة في الفيلم ومسيرة هذا الحوار لما يتطلبه الفيلم بالنسبة لعملية البناء الفني من توازن في شكل القصة ككل . والتوقيت في إدخال العناصر المختلفة في اللحظات المناسبة والاقتصاد في تجميع خيوط الأحداث المصورة حتى لا يشرذم انتباه المتفرج لحظة واحدة .

وعلى أن نراعي أن يعبر الحوار وأسلوب الأداء عن الشخصية وأن تتناسق ألفاظ الحوار مع سمات هذه الشخصية وبيئتها وحتى تتوافق مع طبيعة مهنتها . وعلى الكاتب أن يستخدم الألفاظ والتراكيب المفهومة والموحية بصدق البيئة واللهجة في نفس الوقت ، فاللهجة أيضا ليست غاية ولكنها وسيلة إلى غاية .. ولا خير في لهجة صادقة في حد ذاتها ولكنها تعجز عن توصيل المعنى أو المعلومة أو الإحساس إلى المشاهد ، ومن ثم قد تهدم العمل كله . فاستخدام اللهجة يعتبر من الطرق المهمة والتي يمكن للكاتب أن يستخدمها لإبراز الشخصية ، وذلك لأن لهجة الكلام تعتبر إضافة مهمة بالنسبة لرسم الشخصية فهي أكثر من مجرد وسيلة لم يكتمل نضجها بالنسبة للكوميديا الساخرة .

ولهجة الكلام الأصلية تلقي الضوء على البيئة التي نمت فيها الشخصية و أن الكثير من كتاب السيناريو يتجنبون ذلك لأنها تحتاج إلى دراسة وتخصص وتتطلب كمية كبيرة من العمل والبحث والتصنيف . والحوار يجب أن يتصف بالترابط السلس ، والمقصود هنا هو الترابط السلس في انتقال الحوار من شخصية إلى الشخصية التي تحاورها . وهناك من يحبذ تكرار كلمة أو فقرة معينة ولكن باستخدام آخر كأن تتكرر للاستيعاب أو السخرية .. وهكذا.

والتدفق السلس للحوار يدعم استمرارية الصورة إلى حد كبير وعامل الاستمرارية المتصلة بين السطور في اللقطة هو أمر جدير بالاعتبار ، مع وجوب التأكد من التقدم المطرد للأفكار المتراكمة التي تبني القصة نفسها ، والذي يعتبر الحوار جزءا مهما منها مما يستدعي العناية باستمرارية الحوار والنقلات بين اللقطات والمشاهد . وتعرف الخاصية التي تحقق هذا التدفق الناعم ب (مشبك الحوار) وهي في الواقع عبارة عن طريقة تستخدم الكلمات الختامية في نهاية سطر الحوار كمشبك لوصلها بكلمات استهلال السطر التالي للحوار الخاص بشخصية أخرى . كأن يتم تكرار كلمة واحدة وفي بعض الأحيان تكرار سطر . ونحن نعلم أن العبء الأكبر في الفيلم يقع على الصورة ولذلك فإنه كلما قل الحوار في الفيلم كلما اقترب من وظيفته وكلما اقترب من وظيفته كلما اقترب من واقعيته الفنية وزاد تأثيره كشكل فني جديد .

وحجم الحوار ينظم إيقاع الفيلم كله ففي المشاهد التي تتطلب إيقاعا سريعا يجب أن يكون الحوار قصيرا والكلمات موجزة والأجوبة سريعة ، وعلى العكس من ذلك في المشاهد الأقل سرعة يجب أن يكون الحوار أطول والأسطر أكثر تمهلا . وينبغي أن يكون الحوار في السينما قصيرا ولا يستخدم إلا للضرورة ، كما ينبغي أن يكون طبيعيا لا افتعال فيه ولكن الافتعال في الحوار هو ما يعجب كثيرا من المخرجين حيث يروا أن الحوارات تؤثر في مجرى السيناريو ، ولذلك أرى بأن أي خطة مسبقة خطأ . فحين تبدأ الشخصيات تتواجد تكون لها ردود أفعال تولد المواقف . فكتابة الحوارات هي أولا وقبل كل شيء مسألة تناسق (هارموني) يجب على الأمور أن تتسلل وتتداخل وإلا فأنت تبحث عن تأثير خاص .

من المهم لكاتب الحوار في السينما أن يعرف أنه لا مكان على الأغلب للأحاديث الطويلة في حوار الأفلام ، لأن الحديث الطويل يعوق تدفق الحدث في حين أن الأحاديث القصيرة تزيد من سرعته . ويمكن استخدام الحديث الطويل ولكن ليس من أجل وصف أحداث ومواقف يمكن بشكل آخر سردها في حدث وإلا فإنها يجب أن تستخدم في الغالب الوصف لحالات عاطفية وأفكار ومادة أخرى لا يمكن رسمها عن طريق الحدث . فلا بد أن تكون الحوارات مقتضبة بعيدة عن التخيل الإنشائي والبيان البلاغي الطويل . من الجيد أن يقترب الحوار من الواقع بأن يحتوي على كلمات يستخدمها الناس في الواقع ويستجيب الموقف حقيقي يخلق التعاطف بين المتفرج والشخصيات ويقبلها المتفرج لقربها من الواقع، ولكن الكاتب لا يستطيع كتابة حوار واقعي وصادق تماما لأنه حينها سينحرف إلى موضوعات فرعية لا تثير اهتمام المتفرج.

لغة واقعية يتكلمها المجتمع ويستعملها الناس العاديون دون فصاحة متصنعة . يجب أن يتعلم الذين يكتبون الحوار للأفلام أن يحسنوا من بلاغة أسلوبهم وأن يكتبوا ما قل ودل ، ويجب أن يراعوا حدود الفيلم لأن الفيلم ليس أدبا ووسيلته في التعبير ليست الكلمة وإنما الصورة المرئية (اللقطة) ، وينشأ تكوينها ليس من التطور الأدبي الوفير ولكن من العلاقة بين اللقطات . ومن الضروري أن يمتلك كاتب الحوار المقدرة على تجنب تفاهات الكلام ويركز على العناصر التي تحرك القصة ، وتمكن الشخصيات من العمل وتمتع المتفرج . وأن يكون الحوار مختصرا مكثفا قابلا للتشخيص ويحتوي كل أصناف الصوت من نطق ومؤثرات و موسيقى وحتى الصمت .

محاذير واتجاهات مستحبة في الحوار :

من المعروف أن حصيلة الإنسان اللغوية تنقسم إلى : حصيلة قارئة ، حصيلة كاتبة ، وحصيلة ناطقة . وأكثرها القارئة تليها الكاتبة فالناطق . ونحن في الحوار نستخدم الحصيلة الناطقة أي الجزء الأقل في حصيلتنا اللغوية ، ولكن قدرة المنطوق على توصيل المعنى للمستمع تفوق الكاتبة لأنها تختلط بطريقة الأداء للكلمة ونبرة الصوت وحركات الجسد وتعابير الوجه .. وغيرها . فكلمة صباح الخير يمكن أن تقال بأساليب مختلفة وكل مرة يكون لها إيحاء خاصا فتارة تحمل الترحيب وأخرى الاستغراب أو التهديد.. وهكذا . يضاف إلى ذلك في العمل المرئي بالإضافة إلى الأداء السياق العام والصور المصاحبة له . فالحوار الجيد لا يقف ساكنا ولا راكدا لكي يحل ويحل بل هو الحوار الذي يحمل معاني كثيرة في كلمات قليلة .

وضروري في اختيار كلمات الحوار أن نختار المؤلف منها والابتعاد عن الغريب أو الوحشي من الكلام . فلغة الحوار لا ينبغي لها أن تكون رفيعة عالية المستوى ولا عامية ملحونة ركيكة إلا إذا كان السياق يقتضي بعض ذلك .

وعلى كاتب الحوار أن يراعى مجموعة من النقاط ليخرج حوار بصورة صحيحة وممتعة وجذابة :

- 1- تخلص من كل كلمة لا تضيف شيئا للقصة أو الشخصية أو المتعة للفيلم ، والتخلص من كل الكلمات المكررة خاصة إذا كانت الكلمات أو الجمل المكررة قريبة من بعضها ، وإعادة النظر في الحوار الطويل وتقليم الحوار الطويل دون الإخلال بالمعنى .
- 2- لا مانع من استخدام بعض الكلمات التي لها جرس معين طالما يمكن فهم معناها ولو بصورة تقريبية ، ولكن علينا أن نحذر من التزيد في ذلك ، والأمر يخضع في النهاية إلى ذوق الكاتب وحسن تقديره .
- 3- يجب استبعاد كل حوار سطحي لا يسهم في تطوير الأحداث ولا يساعد على نمو المواقف .

- 4- عند استخدامنا للغة الفصحى في المسلسلات التاريخية أو بعض المرافعات فى المحاكم ، علينا أن لا يغرينا فخامة اللغة وغناها فنختار تراكيب وألفاظ لا يفهمها المشاهد العادي . ولكن علينا هنا أن نلجأ إلى ما يعرف بلغة الجرائد وهي فصحى بسيطة وغير معقدة .
- 5- لا مانع من استخدام بعض الألفاظ الأجنبية طالما أن معناها يمكن فهمه للمشاهد العادي من خلال معطيات الصورة والسياق وطريقة الأداء .
- 6- في حالة الانفعال علينا أن نرتفع بمستوى الحوار مع تقصير فقراته وكسر الإيقاع إذا طالت الكلمات ، وكذلك في حال المناقشات العقلانية أو مخاطبة الجماهير في المحافل الرسمية . وكلما ازداد شحن حوار الفيلم عاطفيا زاد تأثر المشاهد به .
- 7- عدم الإساءة لذوي العاهات أو الإعاقات أو السخرية منهم أو الإساءة إلى فئة من الفئات على التخصيص
- 8- عدم استخدام الكلاشيهات المحفوظة مثل القول الشائع الفلوس مش كل حاجة .
- 9- عدم الإكثار من ذكر اسم المخاطب ويستحسن عدم ذكر الأرقام إلا عند الضرورة واللجوء إلى التقريب
- 10-مراعاة تصاعد الإيقاع داخل المشهد الواحد وأن ينتهي المشهد عند الذروة، وأن يحذر الكاتب أن يبدأ المشهد بقوة ثم تضعف أهمية الحوار أو يهبط إيقاعه .

والحديث عن الحوار لا ينتهي لكن بمراعاة ما تمت الإشارة إليه من محاذير واتجاهات مستحبة ، والتي هي بعض ما اصطلح عليه أصحاب الذوق العام من الكتاب والنقاد ومنظري السينما ، والتي هي حصيلة تجارب مستمرة من أصحاب المهنة ويمكن للكاتب المبدع أن يضيف ويستثني كما يشاء إذا شعر أن ذلك يخدم الخط العام للعمل الذي يكتبه . مع وجوب مراعاة الذوق السليم والتركيب المبتكر وألا يتعدى الحوار حجمه الطبيعي ، وبذلك يمكننا الوصول إلى حوار جذاب جميل وممتع.